في روايته (انظر إلى الفرات)
يشار كمال وتركيا الأقليات المقهورة

اسكندر حبش

عن منشورات (غاليمار) في باريس صدرت مؤخراً الترجمة الفرنسية لرواية الكاتب الكوردي التركي (يشار كمال) المعنونة(أنظر إلى الفرات/ الجزء الأول- قصة جزيرة). حول الرواية خصص الملحق الأدبي لصحيفة (ليبراسيون) ملفه الأسبوعي، إذ تناول الكتاب وأجرى حواراً مع الكاتب. هنا مادة معدة من عدد (ليبراسيون) حول يشار كمال:

عبر البحر الهادئ، عندما تنبثق الشمس في الفجر، هناك لحظة تسبح فيها المراكب الشراعية في نور حليبي لامع. (عليك أن تسلك دربك حين يصبح البحر أبيض)، هذا ما يحب أن يستعيد قوله (يشار كمال)، المنحدر من الأسياد الكورد القدامى ومن عصابات قطاع الطرق الشهيرة ومن الشعراء المتسكعين. لا يرغب (أو لا يريد) يشار كمال، راوي ثورات الشعوب في هضاب الأناضول، الذي تخطى الثمانين والذي يعد أهم كاتب كوردي تركي حي، الغزير الإنتاج، إذ أصدر أكثر من أربعين كتاباً ترجمت إلى أكثر من (٢٦) لغة، والذي تمت ملاحقته من قبل (العدالة) التركية، في الأقل أكثر من عشرين مرة، بسبب التزامه ومواقفه السياسية والإنسانية، أن يعيش بعيداً عن البحر. كان شاباً في السابعة عشرة من عمره، حين اكتشف البحرَ المتوسط هذا اليتيم (قتل والده أمام عينيه) القادم من قريته الواقعة وراء جبال طوروس، فبقي يتأمله طوال نهار بأسره. منظر قلبَ كيانه كله، لدرجة أنه نسي أن يأكل ذلك اليوم. لفترة طويلة سكن (كمال) تخوم مدينة (اسطنبول)، في الجهة الأوروبية، في منزل كبير بالقرب من إحدى البحيرات، وسط غابة فيها (٣٠٠) شجرة، كان يعتني بها بدقة بالغة. إلا أنه غادر مكانه هذا ليعيش في مبنى صغير فوق مرتفعات (البوسفور)، في الجهة الآسيوية، متأملاً ذهاب وإياب المراكب الماخرة هذا المضيق، من على طاولة مكتبه حيث لا يزال يكتب، مثل العادة، بقلم رصاص. يقول (يشار كمال): (إنها رواية شاملة حول انهيار السلطنة العثمانية، كما حول مآسي الحداثة التركية الأصلية التي لا تزال حية في ذاكرتنا: الحروب، ترحيل الشعوب بالقوة وتغيير أمكنتها، المجازر، المذابح، وتدمير الطبيعة).

يشكل البحر، رمز الهجرات والغزوات، الشخصية الرئيسية في هذا العمل الروائي الذي يبدأ، بالضبط، بهذه اللحظة السحرية البيضاء العائدة للوقت الذي تبدأ فيه المراكب (بالسباحة)عند الفجر. إنها قصة جزيرة صغيرة، (جزيرة النمل) جزيرة غير موجودة في الواقع لكن يمكن لها أن تكون في أي مكان قبالة هذا الساحل الذي سكنه اليونان خلال قرون عديدة. توجب على الجميع أن يغادروا (بلادهم) العام ١٩٢٣، خلال عملية تبادل السكان الكبيرة التي تمت يومها (مليون ونصف مليون يوناني من تركيا مقابل نصف مليون تركي من اليونان)، وهي العملية التي وسمت ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، ميلاد الدولة الأمة، للجمهورية التركية الحديثة و(العلمانية)، التي أسسها (مصطفى كمال) وفق النمط اليعقوبي. يروي مبدع شخصية (محمد الناحل) أشهر شخصياته الروائية وهي الشخصية التي كانت تتحدى سلطة (الأغاوات)، واصفاً التاريخ وانهيار عالم، عبر مواجهة بين رجلين (ولدا من رماد الحريق ذاته). هناك (فاسيلي اليوناني)، الذي يرتدي بدلة السلطنة العثمانية، الذي بقي مختبئاً وحده على الجزيرة بعد رحيل كل سكانها اليونان والذي أقسم على الكتاب المقدس، بأن يقتل أول شخص يطأها. هناك أيضا (موسى بويراز)، الشركسي المعتد بنفسه والبهي الطلعة، الضابط المرافق لـ(مصطفى كمال) خلال الحرب، وفيما بعد في نضاله لطرد الفرنسيين واليونانيين. كان (موسى) يريد الهرب من رعب ماضيه ومن انتقام العائلات التي قتل أبناءها.

ما يؤرق هذين الشخصين كانت الذكريات عينها: مذبحة الدردنيل (التي وصفت بفردان الشرق) وما رافقها (من أمطار أجساد مقطعة ممتزجة بالطين وبالحصى كانت تسقط من السماء عند كل قصف مدفعي). كما كانا يهربان من ذكرى جبهة القوقاز حيث الغابة التي قتل فيها ألوف البشر إذ تجمدوا من الثلج وهم واقفون. كانا يستعيدان الصور عينها، الجنود الذين ضلوا الطريق لينهبوا ويقتلوا قبل أن يُقتَلوا، نزوح اللاجئين وهم يموتون من جراء الجوع والأمراض، التصفيات التي ارتكبت بحق اليزيديين، الكرد الزرادشتيين الذين اتهمهم المسلمون بأنهم عباد الشيطان: (نساء ورجال، شبان وعجائز مروا على نصل السيف، أو رموا في دجلة والفرات كما نهود الشابات المقطعة التي كانت تدمي في الصحراء). مشاهد تستدعي أيضاً، وبشكل بديهي، المجازر التي ارتكبت بحق مئات الآلاف من الأرمن، حتى وان كان (يشار كمال) لا يذكر ذلك إلا بشكل عرضي، كما لو أنه يتردد هنا في مواجهة هذا (التابو) الكبير الذي تغلق عليه الذاكرة التركية. مع ذلك، فهذه الذاكرة هي التي تمسه بشكل مباشر، لأنه ينحدر هو نفسه من عائلة كوردية تنتمي إلى منطقة (بحر فان)، أي تلك البحيرة الكبيرة الواقعة في الشمال الشرقي. فأمام تقدم الجحافل الروسية بمساعدة القوميين الأرمن، كان على أهل تلك القرية أن يغادروها والتي كان يسكن فيها بسلام، حتى تلك اللحظة، كل من الكرد والأتراك والأرمن.

يقول يشار كمال: (يروى في عائلتي بأنه لم يكن هناك مسجد في المنطقة، لذلك كان المسلمون يذهبون ليصلوا في كنيسة الأرمن). يتذكر الكاتب الذي ولد في (المنفى) على الطرف التركي الآخر، في الجنوب الغربي، في سهل (كوكوروفا) عند أقدام جبال طوروس، حيث شاهد القرية التي ولدت فيها عائلته، للمرة الأولى، العام ١٩٥١، يومها شاهد أيضا في الساحة العامة، الحفرة الكبيرة التي خلفتها قذيفة روسية. (يومها فقط، قرر السكان أن يرحلوا. لغاية تلك الفترة، كانوا يرفضون ذلك، على الرغم من رعب قصص اللاجئين الذين كانوا يمرون ويقولون أن الروس سيقتلون الجميع ويغتصبون النساء). من هنا بقي أهله موسومين بهذا الترحيل والنزوح. لقد أرقت هذه المأساة طفولته، حيث شاهد أيضاً في قريته، العديد من المهاجرين الأتراك الذين جاءوا من اليونان. (كان لا يزال هناك العديد من الناس الذين لم يوضبوا حقائبهم، فعلى الرغم من مرور السنوات الطويلة، كانوا لا يزالون على قناعة تامة، بأنهم بين يوم وآخر، سيعودون إلى المكان الذي عاشوا فيه دائماً، إلى المكان الذي يرغبون في أن يموتوا فيه: مسقط رأسهم)، ويضيف الروائي أنه ربما كان المنفى أصعب أيضا بالنسبة إلى اليونانيين. هؤلاء كانوا (في معظمهم من الأطباء، من المهندسين، من التجار الذين اعتادوا على حياة المدينة، فوصلوا إلى بلد صغير مدمر، لتسكنهم السلطات في سهول تجتاحها الملاريا).

هذا الموضوع، كان من المواضيع المحرمة لغاية سنوات طويلة في الجمهورية الكمالية التي قررت أن تشيد جمهورية أمة، وفق النمط اليعقوبي، تستوعب كل الأقليات. بيد أن هذه القضية تحتل اليوم مقدمة النقاشات على الساحة التركية. بيع من الكتاب أكثر من (١٠٠) ألف نسخة، حين صدر بالتركية العام ١٩٩٨، وهذا عدد يمثل الكثير هناك، كما أنه أسهم في تسريع عجلة النقاش. (قبل صدور الكتاب، لم يكن هناك أي شخص تقريباً، عند الجمهور الواسع، يتحدث عن هذه الصدمة التي سببتها عمليات الترحيل التي حدثت بالقوة، من هنا جاء الكتاب ليطلق النقاش. ثمة جمعيات عائدة لبعض المهاجرين وقفت على قدميها والبعض الآخر دعتني إلى حلقات حوار حول كتابي. رفضت ذلك قائلا لهم لماذا صمتم حتى الآن): يقول (يشار كمال) أنه كان يحب معرفة هذا (الموزاييك) التي كانت عليه تركيا العثمانية. من هنا تأتي روايته لتشهد على هذا الانتفاخ. نجد فيها خانا شيشانيا، وشركساً من بينهم أميرة جميلة، وشجاعة يونانيين، أرمن، كوردا، عرباً، يهوداً، ألبانيين وشعوباً بلقانية أخرى.

يصف (يشار كمال) نفسه كاتباً من أصل كوردي يكتب بالتركية: (لأنني لا أفكر بالكوردية، حتى وان كانت لغتي الأم فأنا أمي بهذا المعنى). كان لغاية فترة طويلة مفتوناً، مثله مثل العديد من أقرانه في اليسار الجمهوري التركي، بصورة (مصطفى كمال). إلا أن السنوات الخمس عشرة من (الحرب القذرة) (١٩٨٤-١٩٩٩) التي شنتها السلطات ضد الثائرين الكورد في حزب (PKK، وسقوط (٣٧) ألف قتيل فيها، دفعته إلى تشديد التزامه وفي طلب الاعتراف بالحقوق السياسية والثقافية الكوردية. ربما شهرته العالمية هي من يحميه اليوم، إلا أن المخاطر حقيقية. (أنا شخص رعديد، لكن، كما الكثير من الناس، لا أستطيع أن أمنع نفسي من الركض أمام خوفي): هذا ما قاله منذ فترة. ففي بلد يشهد اليوم العديد من الإصلاحات ويحلم بالدخول إلى الاتحاد الأوروبي، يؤكد (يشار كمال) بصوت عال خياره بالاعتراف بذاكرة تركيا المتعددة. بعض أصدقائه القدامى في اليسار الكمالي لم يفهموا هذا (الانحراف نحو العثمانية الجديدة). أما على الطرف الآخر، فإن أصدقاءه الملتزمين بالقضية الكوردية يأخذون عليه عدم التزامه الكافي.

لقد اتخذ يشار كمال مسافة من ذلك. انه قبل أي شيء كاتب يريد أن يشهد، وأول شيء، على محيطه. حين كان صحافياً شاباً يعمل في صحيفة (الجمهورية)، زار في الخمسينيات جميع المناطق التركية التي كانت لا تزال جبالاً مليئة بالنسور والثعالب، وان كانت متجهة

يشار كمال

الكورد في المتون القديمة

اعداد المحرر

تخبرنا موسوعة التاريخ أن دولة آسيوية قديمة تدعى (ميديا) ، كانت تقع إلى جنوب بحر(قزوين)، وشمال مملكة (عيلام)، وشرق جبال (زاكروس)، وغرب بلاد (فارس)؛ أي إنها كانت تشكل جزءاً من بلاد نسميها اليوم (كوردستان). وقد عرف هؤلاء الميديون/ الكورد بشدة بأسهم، وبغزوهم لبلدان كثيرة، لكنهم عرفوا أيضاً بخصائص ميزتهم بعلامات تاريخية فارقة، منها حسن الضيافة والتسامح نحو جميع الشعوب التي جاورتهم بصرف النظر عن تراثها. ويعد الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) أحد أهم المراجع التاريخية في تقصي التطور الاجتماعي والأنثروبولوجي للكورد، عبر توصيفه لأحوال أسلافهم الميديين، إذ يذكر في أجزاء متفرقة منه أن الميديين/ الكورد أناس شرفاء ذوو شرف، ويحترمون كلمتهم ووعودهم إلى حد التطرف. فقد جاء في سفر النبي (دانيال) من التوراة مثلاً، سرداً لقصة ملكهم (داريوس) الذي وقع في مأزق خطير بسبب شدة التزامه بوعوده.

ومؤخراً صدر كتاب (الكورد في الكتاب المقدس) Kurds in the Bible، يتناول أدق تفاصيل أخبار الميديين/ الكورد كما أوردها العهدان: القديم (التوراة) والجديد (الإنجيل). مؤلف هذا الكتاب هو (دوجلاس لايتون) Douglas Layton، الحاصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه من جامعة (العنقاء) للاهوت في الولايات المتحدة الأمريكية، والمؤسس لجمعية دولية رسالتها حماية الكنائس وأتباعها في البلدان الإسلامية. وقد قام الأستاذ (عبد الرحمن عفيف) بجهد أصيل، إذ نشر ترجمته لأحد فصول هذا الكتاب من الإنجليزية إلى العربية، نورد فيما يأتي أجزاءاً منتقاة بتصرف من هذه الترجمة:

الملكة(أستير)

لقد حَدَثَ الكثيرُ من تاريخ الكتاب المقدس في كوردستان، وأكثر شخصيات الكتاب قوة عاشت على هذه الأرض. إن كل من يدرس الكتاب المقدس، سيتعرف، ويتعلم أشياءَ حول كوردستان، فالرب، أقام جنة عدن بين نهري دجلة والفرات، اللذين لا يزالان يجريان في أراضي كوردستان إلى اليوم.

الملكة (استير) التي أنقذت قومَها من التدمير والخراب، عاشت في كوردستان. كان من الممكن ببساطة أن تخسر هذه الملكة حياتها أثناء محاولتها إنقاذ قومها، لكن حبها الكبير لهم، وللرب، جعلها تصرخ: ((إن هلكتُ، فلأهلكَ)). وهي متغلبة على خوفها، قدمت التماساً إلى الملك، كانت نتيجته إنقاذ قومها. هذه القصة الشيقة من الكتاب المقدس يمكن قراءتها في كتاب (أستير).

حين نقرأ هذه الحكاية، نتذكر الكورد الذين مثل (أستير) وقفوا بشجاعة، مدافعين عن ميراثهم. هناك أيضاً الكثير من قصص الكتاب المقدس الرائعة التي جرت أحداثها في كوردستان. قبور الأنبياء العظماء مثل: (ناحوم، يوناه، هاباكوك، دانيآل، ونوح) كلها موجودة على هذه الأرض الفسيحة.

نبوءات تحققت

لقد تنبأ عدد من هؤلاء الأنبياء بكلمات عن الكورد/ الميديين. هذه العبارات والكلمات مر الزمن عليها، مبرهنة صدق وصحة الكتاب المقدس وأهمية الميديين في هذا الكتاب. فمثلاً في (ناحوم) ٧/٣، تم التنبؤ بانهيار نينوى، وبعدئذ تحقق الأمر على يد الميديين. في (أرمياء) ١١/٥، تم التنبؤ مراراً، وبشكل دقيق أن الميديين سيدمرون بابل. في (دانيآل) ٢٨/٥، قال هذا النبي العظيم بنهوض الميديين والفرس وتأسيسهم إمبراطورية عظيمة.

الكورد وسفينة نوح

يقع جبل (آرارات) في منطقة كوردستان، في ما يسمى اليوم شرق تركيا. وقد حدثت واحدة من بين أكبر المداولات بين الرب والبشر في هذه المنطقة الدرامية. يقص علينا الكتاب المقدس حكاية نوح في سفر التكوين. لأن البشر ابتعدوا، واستنكروا الرب، وأشاعوا الظلم والحقد في العالم، دمر الرب الأرض عن طريق طوفان عظيم. (فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي. لأن الأرضَ امتلأت ظلماً منهم. فها أنا مهلكهم مع الأرض)/سفر التكوين: ١٣,٦ أما عائلة نوح فقد حفظها وحماها الرب بطريقة أسطورية. حين انتهى الفيضان العظيم، جاء الفلك الذي وهبه الله لنوح، ليستقر في مكان ما ندعوه اليوم كوردستان. فوضع الرب قوس قزح جميلاً في السماء، ليرينا إشارة ورمز عهده. مات الآخرون كلهم في الفيضان، والحياة على الأرض وفدت من جديد مع نوح وعائلته. بدأ التاريخ كما نعرف في جبال كوردستان، فظهرت الحضارات الجديدة هنا: الزراعة، الرعي، النسيج، العمل بالمعدن، صناعة الفخار.

المسيح وحكماء الكورد

يقول الكتاب المقدس أن بعضاً من حكماء الكورد وآخرين، رأوا نجمة المخلص حين ولد (عيسى) في مدينة بيت لحم، وتتبعوها إلى المنطقة حيث ولد المخلص. لم يكن الرجال الحكماء يعرفون بالضبط في أية قرية سيولد المسيح، لذلك سألوا (هيرودس) ملك القدس، التي كانت بالقرب من بيت لحم. (ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك، إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود. فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجدَ له)/ متى: ٢/١/٢ .

كان (هيرودس) متكبراً ولم يكن يخاف من الرب؟. حاول أن يخدع حكماء الكورد، ليساعدوه في قتل المسيح، لكنه لم يستطع، إذ كانوا من بين الأوائل الذين آمنوا بصدق بيسوع. لقد وضع هؤلاء الحكماء الكورد أيضاً الأسس لعادة منح الهدايا للاحتفال بميلاد المسيح. (فلما سمعوا من الملك ذهبوا وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق الصبي حيث كان الصبي. فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جداً. وأتوا إلى البيت ورأوا الصبي مع مريم أمه. فخروا وسجدوا له. ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهباً ولباناً ومراً. ثم إذ أوحي إليهم في حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس انصرفوا في طريق أخرى إلى كورهم)/ متى: ١/ ١٢/٩

يخبرنا التاريخ بأن الكورد الذين سمعوا كلمة الرب ذلك اليوم، قبل ما يقارب (٢٠٠٠) سنة،عادوا ونشروا هذه الرسالة الرائعة في كل أرجاء كوردستان. ففي سنة (٤٠٠) بعد ميلاد المسيح، كان كل الكورد تقريباً من أتباع المسيح.

شعر

محمد عفيف الحسيني❖

انتظار

جالسونَ هكذا..
وحيدون، تمتلئُ جيوبهم بزهرِ الليمون
قلوبهم بالسمكاتِ الذهبية
جالسون، براعمٌ تتساقطُ على الأرض
جلالُ الريشِ من طائرِ الكركي.
هكذا.. هكذا..
سنواتهم تحترقُ في الكتبِ والكستناءِ المشوي
الزهرُ الأصفرُ وراءهم، والمرآةُ سؤالهم
يحرقونَ أصابعهم في الشرفاتِ،
وفي الزمنِ يتداوون.
هكذا.. هكذا..
جالسونَ، ينتظرونَ رنينَ الأجراسِ بآذانهم الخفيفة،
لمعةَ السنوات
مساءَ الحب
وجثةَ صديقهم المتفسخة
يقرؤون الأشجارَ، ولا يفهمون لماذا يأتي الخريفُ أصفرَ
والكمنجات صفر
وصوتُ البيانو البعيد.
شاحبونَ في فنجانِ القهوة
بنيونَ في تبغِ العمر.

وأخيراً يموتونَ
أولئك الذين جلسوا تحتَ زهرِ الليمونِ الأصفر.

شجرة

نحن بقاياكِ أيتها الشجرة،
ورقكُ اليابسُ على الأرض،
تحفّ بنا الأرجوحةُ والأجراسُ منذ زمنٍ بعيد،
ونحن نقتبسكِ كمجدٍ زائل،
وأشخاصٍ بلا مصير.
نحن الذين من برونز،
بأيدٍ منطفئة،
واستراحات الطرق البعيدة.
نحنُ بقاياكِ أيتها الشجرة،
وظلالكِ الممتدةُ على صخبِ المنشار.

المراثي

الأولادُ في مجاورةِ المراثي، يدحرجونَ الأسلاف،
مجدداً خرجوا من الريح،
حزموا أجسادهم بالزمنِ والساحاتِ الفارغة،
كانوا في الأبنيةِ يتلألأون،
وعلى الشاطئ يتحولونَ إلى الرمالِ والقواقعِ الميتة
كم مرةً نادوا على الأسلاف
حتى يندملَ غيابُهم
فيعودون بالسعالِ والقصص.
راح الأولادُ والساحاتُ والمراثي
وبقيَ الحنين.

❖ شاعر كوردي سوري يكتب بالعربية. ولد في عامودا ,١٩٥٧ هاجر إلى السويد منذ العام ١٩٨٩،حيث يقيم في غوتنبورغ. من أعماله المطبوعة: (بحيرة من يديكِ/ فرنسا . الأردن١٩٩٣)، (الرجال/ السويد ١٩٩٥)، (مجاز غوتنبورغ/ سوريا ١٩٩٩).

إصدارات كوردية

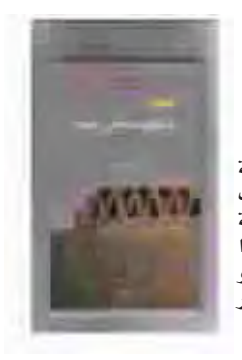

مهاباد في أولمبياد الله

عن منشورات مؤسسة (سردم) في كوردستان، صدر باللغة الكردية . الجنوبية، كتاب: (مختارات من قصائد وحوارات سليم بركات . مهاباد في أولمبياد الله)، من إعداد وترجمة الشاعر(هندرين). ومن بين المختارات التي تضمنها الكتاب: (أولمبياد الله - مهاباد)، و(اقتلوا روناشتا)، و (انتقام)، و(حوار سعادة سوداح مع سليم بركات)، و(حوار ناصر مؤنس وصلاح عبداللطيف مع سليم بركات).

مشاهد من التاريخ المنسي

بجهد متميز يتقدم (سامي أحمد نامي) بكتابه (dîmenin ji dîroka winda)مشاهد من التاريخ المنسي)، عن تجليات أنشطة ثقافية واجتماعية وسياسية للكورد في سورية، وما لذلك من وشائج مع أجزاء أخرى لكوردستان في الدول المجاورة. وبالرغم من أن مؤلفين آخرين قبله قد خاضوا في البقعة الجغرافية التي أحاط بها (سامي أحمد نامي)، فإن الكتاب يندرج في طراز له خصوصيته بين هذه الكتب.

(عاش باكراً)

مجموعة شعرية

صدرت المجموعة الشعرية الأولى (عاش باكراً) للشاعر (دلدار فلمز) عن دار (عبد المنعم -ناشرون)، بنصوصها الفلاشية وبغنائيتها المركزة، إذ تضمنت كماً هائلاً من التجريب بتقنية إثراء الكلمة واللغة، ضد القوالب الشكلية السلفية الجاهزة الجامدة، فتميزت القصائد بالاعتماد على الجمل القصيرة والكلمات المبهرة الغنية بالسردية.